

مجلة العلوم القانونية والاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

مظاهر الإعجاز الصوتي من خلال الأبعاد الجمالية للمفردة القرآنية عند أحمد ياسوف

**Manifestations of Phonetic Miraculousness Through the Aesthetic Features
of Quranic Vocabulary in the Writings of Ahmed Yasouf**

ط.د: سميحة بوقرومي

جامعة الجزائر – 1. كلية العلوم الإسلامية (الجزائر) s.bougheroumi@univ-alger.dz

مخبر "مناهج البحث والتقويم في العلوم الإسلامية وغاياتها"

تاريخ النشر: 2026/03/01

تاريخ القبول: 2026/02/01

تاريخ ارسال المقال: 2025/12/02

*المؤلف المرسل

الملخص:

تحتل المفردة القرآنية أهمية قصوى في بيان معاني النص القرآني وبناءه؛ فقد عني العلماء القدامى منهم والمحدثون بدراساتها مركزين اهتمامهم على جمال صوت الكلمة، وعدوه وجهها رئيساً من وجوه الإعجاز اللغوي؛ حيث ظهر هذا بارزاً ضمن مؤلفاتهم التي أشادت بحسن التأليف الصوتي للمفردة، وتضمنت عبارات تؤكد ذلك، وهذا دليل قوي على اعتبارهم السمع مقياساً دقيقاً حاكماً على جمال المفردة.

ولعل من أكثر الدارسين المعاصرين الذين عنوا بجماليات المفردة القرآنية "أحمد ياسوف"، والمتتبع لمؤلفاته يجده قد استفاد في شرحها بدافع إبراز الإعجاز الصوتي في ظلها.

وإذ نسعى من خلال هذه المقاربة العلمية إلى استجلاء هذه الأبعاد الجمالية عند اللغوي المعاصر "أحمد ياسوف" ومدى إسهامه في إبراز الإعجاز الصوتي على مستوى المفردة، انطلاقاً من قراءة استكشافية لمفهوم المفردة والإعجاز الصوتي، ثم محاولة استقراء أقواله وتحليلها على مستوى المفردة انطلاقاً من آراء بعض العلماء القدامى وكذا المحدثين؛ مما يبين استفادته من التراث اللغوي. ومن أهم الملاحظات على منهجه أنه لم يترك عنصراً من عناصر الإعجاز الصوتي على المستوى الجمالي للمفردة إلا وطرقه إشارة وحديثاً. وبناء على هذا المد الزاخر ارتأينا أن يكون مدار بحثنا حول مظاهر الإعجاز الصوتي من خلال الأبعاد الجمالية للمفردة القرآنية عند أحمد ياسوف، وأثر ذلك في إثراء المعنى.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز الصوتي، المفردة القرآنية، التنعيم، أحمد ياسوف.

Abstract :

According to the great significance that the qur'anic terms occupy within Quran meaning and structure clarification, Ancient and modern scientists mean through their studies which focus on word sound attractiveness. Moreover, they consider it as a principle mean of the linguistic miracle, which appears among their creations that acknowledge the charm and well composition of each sound. It includes some expressions which ensure that, and this is a vigorous evidence, where they relate the sound as a measurement but control the attractiveness of each specific term.

And maybe the present days scholars, who mean the attractiveness of quoranic terms "Ahmad Yassouf". The reader of his literature, find his artistic work in its explination with the aim of highlighting the linguistic miracle through it.

Through This scientific approach, we strive to elucidate These charming aspects according to the present literature "Ahmad Yassouf", And the extent which it contributes is showing the voice miracle through the single term. Based on the discovering reading for term consumption and voice miracle, in addition to an extrapolation and analysing for his statements at the level of single term, and from the perspective of some modern and ancient scientists, it appears he is utilization

of the artistic and linguistic heritage. Furthermore, one of the most known notes against his approach, that he touched on all the elements of the miracles of voice for the word attractiveness by speech or indication. Based on this great work, we sought to take the manifests of a voice miracles through the dimensions of qur'anic word attractiveness and charming by "Ahmad Yassouf", And its affection in enhancing meaning as our core topic of the research.

Keywords: voice miracle, quoranic term, word attractiveness, Ahmad Yassouf.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين وبعد: حظي الجانب اللفظي واللغوي بنصيب وافر في بيان جمال القرآن الكريم وإعجازه وتفرد؛ وذلك لأنه نزل في بيئة تولي الكلمة اهتماماً بالغاً، وقد انصب الاهتمام بجمال الصوت اللغوي للكلمة كأحد أهم أوجه الإعجاز القرآني؛ إذ كان وسيلة بارزة في إحداث الأثر النفسي المطلوب وإيصال المعاني، ولم يكن مجرد عنصر جمالي فحسب، وقد أدرك العلماء قديماً وحديثاً هذه الخصوصية المميزة؛ فانعكس ذلك في كتبهم التي عنيت بوصف التناسق الصوتي المعجز للمفردات القرآنية؛ مما يدل على مدى تذوقهم للألفاظ، واعتبارهم التآلف الصوتي وحسن السمع معياراً رئيساً في الحكم على عذوبة المفردة ووقعها في النفس.

ومن العلماء الذين أسسوا للإعجاز على مستوى المفردة القرآنية مصطفى صادق الرافعي، وقد حذا حذوه علماء كثر؛ منهم أحمد ياسوف الذي أولى اهتماماً كبيراً بكتب التفسير والإعجاز؛ مسلطاً الضوء على المفردة؛ من حيث انسجامها، وتناسقها، وجمالياتها. ونسعى انطلاقاً مما سبق إلى استكشاف ملامح بحثه اللغوي، مع الاهتمام بالإعجاز الصوتي للمفردة القرآنية أكثر، من خلال استقراء كتبه وتحليل أفكاره في هذا السياق.

أهمية البحث:

يعد القرآن الكريم الدستور الأعلى للأمة الإسلامية؛ فهي بحاجة ماسة إلى معرفة معانيه الجليلة وأسراره الخفية، والإعجاز القرآني هو أحد العلوم التي تفضي إلى فهم كلام الله؛ ومنها الإعجاز الصوتي للمفردة القرآنية، فلا يمكن لباحث أن يتغلغل في عمق القرآن ما لم يقف على أبعادها الإعجازية. وتظهر أهمية الموضوع في النقاط الآتية:

- الوقوف على أحد أهم وجوه إعجاز القرآن الكريم - الإعجاز الصوتي - وبيان مدى أهميته.
- الكشف عن بعض أسرار القرآن الكريم من خلال الوقوف على تألفه وانسجامه.
- زيادة ثراء التراث الإسلامي من خلال الكشف على جهود علماء الأمة؛ ومن بينهم "أحمد ياسوف" ودوره في خدمة القرآن الكريم.

إشكالية البحث:

لأحمد ياسوف جهود جبارة في خدمة القرآن الكريم؛ منها جماليات المفردة القرآنية، فما إسهامات أحمد ياسوف في الدرس الإعجازي؟ وما هي معالم منهجيته في مقارنة فنية المفردة القرآنية؟ وما علاقة الإعجاز الصوتي بالإعجاز اللغوي؟.

كل هذه الإشكالات سنتطرق إليها في بحثنا هذا -بحول الله - ونكشف عن جهود أحمد ياسوف في جانب الإعجاز الصوتي، وكيف عالجها.

الفرضيات:

يمكن معالجة هذا الموضوع من خلال عدة فرضيات؛ من أهمها:

• إمكانية اعتماد أحمد ياسوف لمنهج تحليلي يجمع بين البعدين الصوتي واللغوي؛ مما مكّنه من إظهار جماليات المفردة القرآنية.

• قد تتجلى إسهاماته في مقاربات جديدة تربط بين الإعجاز اللغوي والإعجاز الصوتي، موضّحاً تكاملهما الدلالي والجمالي.

• قد يرجع تركيزه على الإيقاع الصوتي للقرآن الكريم وأثره في المتلقي إلى التراث اللغوي، كما قد يكون عمل على تطويره وفق أسلوب معاصر للعلوم الحديثة في علم الأصوات والإعجاز القرآني.

أهداف الموضوع:

من خلال استقراء مؤلفات أحمد ياسوف، وعلى رأسها كتاب جماليات المفردة القرآنية، اتضح تضمنها على أبعاد جمالية للمفردة القرآنية تبين مظاهر الإعجاز الصوتي. وقد عالج المؤلف هذه الأبعاد دراسة وتحليلاً، وبناءً على ذلك خلصنا إلى أهم الأهداف المرجوة وهي كالآتي:

- استخراج أهم الأبعاد الجمالية للمفردة القرآنية من مؤلفاته، وكيف تجلّت مظاهر الإعجاز الصوتي من خلالها.
- تسليط الضوء على أهمية البعد الصوتي في الدرس الإعجازي؛ من خلال إبراز التناسق الصوتي للمفردة القرآنية.
- إبراز جهود أحمد ياسوف في خدمة كتاب الله عموماً والإعجاز الصوتي على وجه الخصوص، وهو ما سنراه - بإذن الله - مع بيان الإعجاز الصوتي للمفردة القرآنية وذلك بالوقوف على نماذج من أقواله في كل جزئية تطرق إليها.

منهجية البحث:

بعد استقراء جل الأبعاد الجمالية للمفردة القرآنية في مؤلفات أحمد ياسوف، قمت بتحليلها والتمثيل لها مع ذكر ما قيل في هذه الأبعاد من أقوال علماء الإعجاز، كما أنني استندت في الكشف على الأسرار الإعجازية للمفردة القرآنية إلى كتب الإعجاز عموماً؛ فكان المنهج المتبع هو الاستقرائي التحليلي، أما الآيات فقد كتبت بمصحف المدينة النبوية للنشر الحاسوبي، ومن ثم جاءت خطة البحث كما يلي:

مقدمة ومبحث تمهيدي عرفت فيه أحمد ياسوف ومبحثان وخاتمة.

المبحث الأول: مفاهيم ومصطلحات.

- المطلب الأول: مفهوم الإعجاز الصوتي والمفردة القرآنية.

- المطلب الثاني: خصائص المفردة القرآنية على مستوى النسيج الصوتي.

المبحث الثاني: الأبعاد الجمالية للمفردة القرآنية.

- المطلب الأول: الجمال الإيقاعي للمفردة القرآنية عند أحمد ياسوف.

- المطلب الثاني: جمالية المفردة القرآنية -الحركات والمدود نموذجاً-.
خاتمة.

مبحث تمهيدي: ترجمة أحمد ياسوف:

نسعى في هذا المبحث إلى تقديم ترجمة مركزة وموجزة لأحمد ياسوف، تسلط الضوء على سيرته الذاتية وأبرز إسهاماته العلمية خاصة في مجال الدراسات القرآنية واللغوية.

إن المتابع لما ورد عن سيرة أحمد ياسوف وحياته يلفي أنها اتسمت بالاختصار، وحاصل ما توصلنا إليه أنه: (1)

أديب معاصر سوري يتميز بإسهاماته اللامعة في المجال اللغوي والأدبي، يشغل منصب معيد بجامعة حلب في كلية الآداب؛ حيث يسعى إلى تطوير الدراسات الأكاديمية وتخرج أجيال من الطلبة. تلقى تعليمه في الجامعة على يد أساتذة من أبرز نخب المجتمع، وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور نور الدين عتر؛ الذي أثرى معارفه اللغوية والعلمية؛ مما انعكس إيجاباً على عمق إنتاجه الأدبي والفكري، ويتمتع أحمد ياسوف برؤية منهجية زاجت بين الحداثة والأصالة؛ وهذا ما جعله أحد الشخصيات المرموقة في الأوساط الأدبية والأكاديمية.
كتبه: (2)

1-جماليات المفردة القرآنية: دراسة ماجستير تقدم الجوانب الجمالية المختلفة للمفردة القرآنية؛ من ناحية الجمال السمعي والبصري ومدى تأثيرها على المعنى، مع جمع في التحليل بين اللغة والبلاغة والإعراب، وتزواج بين إرث القدامى وجديد المحدثين لإبراز دور الكلمة في الإعجاز القرآني.

2-الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف: دراسة تتناول الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، حلل من خلالها التصوير الفني الذي يجمع بين الإيجاز والإبداع والأساليب البلاغية، وكذلك بين دورها في التأثير على المتلقي وتوضيح المعاني، وهذا لإثبات عبقرية البيان النبوي.

3-جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير: تركز هذه الدراسة على الجوانب البلاغية واللغوية للمفردة القرآنية، وتناقش طريقة انسجامها واتساقها مع سياق القرآن الكريم لتوضيح دلالات النصوص، مع إبراز دور العلماء في تفسير هذه الجماليات ومساهمتها في الإعجاز القرآني.

المبحث الأول: مفاهيم ومصطلحات:

سنتناول في هذا المبحث مفهوم الإعجاز الصوتي بوصفه مركباً إضافياً بعد تعريف كل من الإعجاز والصوت، ثم تعريف المفردة القرآنية مع تحديد مناهجها.

المطلب الأول: مفهوم الإعجاز الصوتي:

قبل ضبط مفهوم "الإعجاز الصوتي" باعتباره مركبا إضافيا، من الضروري الوقوف على توضيح المعنى اللغوي والاصطلاحي للفظ "الإعجاز"؛ إذ يُعد فهم هذه المفردة واستكشاف أبعادها المعنوية في شتى سياقاتها لتحديد معانيها الدقيقة الحجر الأساس لتمكيننا من فهم الألفاظ المرتبطة بها بشكل أعمق.

أ- مفهوم الإعجاز:

لغة: نسعى في هذه الفقرة لتقديم قراءة معجمية لاصطلاح "ع ج ز"؛ حيث نطمح من خلال هذه المقاربة إلى البحث في أبرز الإطلاقات اللغوية لهذه المفردة؛ بهدف كشف المعاني الخفية الجامعة بين المفهوم الاصطلاحي واللغوي، وقد تفاوتت مفاهيم العلماء سواء من القدامى أو المعاصرين لهذا الاصطلاح؛ وإن اتفقت على معنى العجز؛ فقد أشار ابن فارس [ت 395هـ] إلى هذا بقوله: "(عجز) العين والجيم والزاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء." (3)

ومن أهم الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من هذا التعريف أن "الضعف" هو أحد الأصلين الجوهريين اللذين يقوم عليهما تعريف العجز، وهو مفهوم واسع وأصل جامع يشمل عدة دلالات ومعان وردت في تعريفات بعض اللغويين، وكذلك فإن تعريف ابن فارس يتضمن أصلاً آخر يتمثل في "مؤخر الشيء"؛ وهو ما يعكس بُعداً مكانياً أو زمنياً يشير إلى تأجيل الأمور أو تأخرها، وهذا قد يفتح المجال بشكل أوسع لتفسير شامل لمختلف جوانب المعاني المرتبطة بالعجز في مختلف السياقات.

ورغم اختلاف آراء العلماء وتفاوت تعريفاتهم مركزين على هذين الأصلين، نجد ابن منظور يعرف العجز بإضافة بُعد جديد لمفهوم العجز، في قوله: "'نقيض الحزم.'" (4)

وبالرغم من هذا يبقى ابن فارس منفرداً بقراءة معجمية شاملة جمعت أصول معاني العجز؛ حيث حددها في معنيين أساسيين هما: الضعف ومؤخر الشيء، هذه القراءة توضح عمق المفهوم وشموليته؛ حيث يجمع بين بعدي الزمان والقوة في تفسير العجز.

اصطلاحاً: لإبراز المفهوم الاصطلاحي للإعجاز وتوضيحه بشكل دقيق وشامل، أخذنا عدداً من التعريفات بهدف استخلاص مفهوم جامع بينها؛ وقد اعتمدنا من بين هذه التعريفات قول الشريف الجرجاني: "أن يؤدي المعنى بطريق، هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق." (5)

ولقد ربط الشريف الجرجاني — رحمه الله — معنى الإعجاز بالبلاغة وجعله متعلقاً بها؛ حيث عدّ الإعجاز تجسيدا لتوصيل المعنى بأسلوب فريد يفوق كافة الطرق الأخرى؛ فهو يعتبر قمة البلاغة وأسمى مستوياتها، بما يتجاوز ويفوق باقي الوسائل اللغوية الأخرى، ليعكس تميزاً يستحيل مجاراته عند التعبير عن المعاني.

ومن الباحثين المحدثين نجد الراجعي [ت 1356 هـ] قد فصل أكثر في المفهوم الاصطلاحي للإعجاز بقوله: "وإنما الإعجاز شئان، ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة، ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه." (6)

وهنا يبدو أن الرافعي قد قام بطرح فكرة جديدة حاصلها أن المعنى الاصطلاحي للإعجاز يتعلق بعلقا وثيقاً بجذوره اللغوية، ويتجلى ذلك في تعريفه للإعجاز؛ حيث ربطه بالمفهوم اللغوي وجعله بمعنى ضعف الإنسان وعجزه أمام القوة المطلقة للخالق. وهذه الفكرة تتناغم مع رؤية الجرجاني، الذي جعل مفهوم الإعجاز يرتبط بالبلاغة في قالب متكامل ومحكم؛ فالجرجاني أظهر الإعجاز في التعبير البلاغي المتكامل، والرافعي أضاف بُعداً آخر له يرتبط باستحالة مجازة البشر للقدر الإلهية؛ مما يزيد من تعزيز العمق الفلسفي للمفهوم.

والناظر في هذه الأقوال يستشف أن الإعجاز اصطلاحاً هو حالة مطلقة من التفوق تعجز البشرية، وكل المخلوقات عن الإتيان بمثلاً، ويتضح هذا الإعجاز في عدة مجالات أبرزها اللغة والنظم والبلاغة وغيرها.

ب. مفهوم الصوت:

لغة : تعددت المفاهيم اللغوية لمصطلح الصوت؛ إذ نجده مبثوثاً في مجموعة من المعاجم، نذكر منها: ما قاله الخليل ابن أحمد: "رجل صائت : حسن الصوت شديده، وكل ضرب من الأغنيات صوت من الأصوات." (7)

نلاحظ أن الخليل قد جمع من خلال تعريفه بين وصف القوة في الصوت والجمال؛ مما يعكس حسه وإدراكه للتكامل بين قوة الصوت وجماليته، وكذلك فقد وسّع الخليل معاني "الصوت" لتشمل كل أضرب الأغنيات. ويكشف هذا التحديد الدقيق عن نظرتة العميقة في إظهار مرونة اللغة وشموليتها؛ حيث ربط الصوت بالتعبير الموسيقي والجمال الفني، ولم يقتصر على جانب الصوت الفيزيائي وحده.

وقد فصل ابن فارس في مقاييسه أكثر قائلاً: "الصاد و الواو و التاء أصل صحيح ، وهو الصوت ، وهو جنس لكل ما وقر في أذن السامع، يقال هذا صوت زيد. ورجل صيت ؛ إذا كان شديد الصوت، وصائت إذا صاح." (8)

يتضح من كلام ابن فارس أن الأصل اللغوي لمفردة "الصوت" يمكن وصفه أنه دلالة شاملة لجميع ما يدركه السمع، وهو لا يتوقف على الإشارة إلى الكلام أو النطق فقط، وإنما يشمل أوصافاً أخرى؛ مثل "صيت" للتعبير على وضوح الصوت وقوته، و"صائت" الدلالة عن صاحب الصوت العالي. وهذا يعكس الثراء الدلالي لهذا الجذر؛ كونه يتناول كل ما يتعلق بالصوت وتأثيره السمعي.

إذن قد يكون المفهوم اللغوي للصوت يتميز بالثراء والشمولية؛ فهو يتجاوز حدود إدراك السمع والنطق ليشمل أوصافاً متعددة؛ كالجمال والقوة والوضوح، وكذلك هو يرتبط بالجمال الفني والتعبير الموسيقي؛ مما يؤكد مرونة اللغة العربية، ويعكس قدرتها على استيعاب المعاني الجمالية والحسية في تناغم محكم ومتكامل.

اصطلاحاً: عرفه ابن جني بقوله: "عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً حتى يعرض له في الحلق و الفم و الشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده و استطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها." (9)

نستنتج من التعريف الاصطلاحي للصوت عند ابن جني أنه تيار صوتي يخرج بشكل ممتد مع النفس، ثم ينقطع بمقاطع معينة في الفم أو الحلق أو الشفتين تحول دون استمراره في الاستطالة والامتداد، وتُعرف هذه المقاطع

بالحروف، وتتفاوت أجراسها وتتنوع استنادا إلى اختلاف مواقع هذه المقاطع. يبرز هذا التعريف التداخل المنظم بين التركيب اللغوي للصوت والبنية الفيزيائية، مبينا أثر تنوع المخارج على أداء اللغة وجمالها.

وأما في علم الفيزياء؛ فقد عرفه ابن سينا بقوله: "أي اضطراب تضاعطي ينتقل في المادة بحيث يسبب حركة طبلة الأذن، ويؤدي إلى الإحساس بالسمع"، وهذا ما انتبه إليه ابن سينا مبكرا، حيث اعتبر الصوت أثرا سمعيا، وجعله واحدا من المحسوسات، وتختص به الأذن، وأكد "أن الصوت من بين المحسوسات يختص بحلاوة، من حيث هو صوت عن نوع تلتذه الحاسة ونوع تكرهه، لا على مقتضى الإفراط المؤذي، فإن ذلك مما تشترك فيه الكيفيات المحسوسة." (10)

نستنتج مما سبق أن ابن سينا كان من أوائل المجتهدين في فيزياء الصوت؛ فأسس لهذه الظاهرة واصفا إياها أنها اضطراب تضاعطي ينتشر في المادة، مخلفا تأثيرا على طبلة الأذن، يؤدي إلى السمع؛ فالصوت يعتبر أحد المحسوسات الخاصة بالأذن، بالإضافة إلى تميزه بصفات حسية تؤثر على إدراكه وفقا لطبيعته وشدته.

ج. مفهوم الإعجاز الصوتي:

يظهر الإعجاز الصوتي في القرآن من خلال بنيته الصوتية المتناسقة والفريدة، والتي تظهر في صياغة الألفاظ وتشكيل الجمل، وتمتد لتشمل الآيات وكامل السور؛ فإن الإعجاز لا يقتصر على التناسق الصوتي فقط؛ وإنما يتجسد في الإيقاع المتناسق الذي ينسجم انسجامًا تامًا مع الدلالات التي تحملها السورة؛ وكأنه نسيج شديد الإحكام يجمع بين الدلالة والصوت في وحدة متكاملة. إن هذا التوافق الفريد بين البناء الدلالي والصوتي، والذي يبرز بإتقان ودقة لا يمكن أن يصله ويبلغه كلام البشر، ويؤكد أن النص القرآني وحي إلهي يتعدى حدود القدرة البشرية في التنسيق والإبداع، وإننا نكاد لا نجد تعريفا دقيقا لاصطلاح "الإعجاز الصوتي"؛ وإنما هناك التفاتات مبثوثة بين أقوال العلماء تدلنا عليه؛ منها ما قاله الرافعي: "فلما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جملة، ألحانا لغوية رائعة، كأنها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة قراءتها هي توقيعها فلم يفهم هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به." (11)

يتجلى إعجاز القرآن الصوتي في التناسق الفريد بين حروفه وكلماته وجملة، حيث ينبض بإيقاع لغوي مميز يجعله وحدة متكاملة لا مثيل لها. هذا الانسجام المحكم يتجاوز قدرة البشر، مما يؤكد طبيعته الإلهية الفريدة.

المطلب الثاني: مفهوم المفردة القرآنية ومذاهبها:

يتناول هذا المطلب مفهوم المفردة القرآنية باعتبارها وحدة أساسية توضح بعض خصائص الإعجاز الصوتي واللغوي؛ مما يضع القارئ في السياق العلمي الصحيح؛ بتعزيزه وتوضيحه أسس الموضوع، وكذا مذاهب القدامى في بيانها.

أ. مفهوم المفردة القرآنية:

لغة: تُعدّ المفردة مادة لغوية تتمتع بثراء واسع في مفاهيمها ودلالاتها، وقد تطرق إليها علماء لغويين كثر في معاجمهم. هذه الأخيرة تضمنت تنوعا ملفتا في معانيها وأبعادها حسب منهج كل عالم؛ وقد اقتصرنا على بعض

هذه التعريفات؛ منها تعريف الخليل الذي أشار إلى مفهوم المفردة من خلال مقارنة تنسجم مع مفهومه المنهجي للغة؛ حيث يقول: "والفرد ما كان وحده، يقال: فرد يفرد، وانفرد انفراداً، وأفردته: جعلته واحداً. والفريد: الشذر، والواحدة فريدة، وجاء القوم فرادى، وعددت الخرز والدرهم أفراداً أي واحداً واحداً. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾⁽¹²⁾، جمع فردان، والله الفرد: تفرد بالربوبية والأمر دون خلقه.⁽¹³⁾

نستنتج من القول السابق أن اصطلاح "الفرد" يشير إلى مفهوم التفرد والوحدة في كلا السياقين اللغوي والديني؛ ففي المعنى اللغوي يدل على الواحد الذي ليس له شريك والمنفرد عن غيره، وفي السياق الديني يعني تفرد الله بالأمر والربوبية.

وكذلك أورده الفيروزآبادي في قوله: «وقد ورد في القرآن في أربعة مواضع على أربعة معان»⁽¹⁴⁾

1- في دعاء زكريا وسؤاله ألا يبقى بلا وارث: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾⁽¹⁵⁾

2- بمعنى المنفرد في القبر: قال تعالى: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾⁽¹⁶⁾.

3- في الحضور إلى الحشر وحيداً: قال تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾⁽¹⁷⁾.

4- بمعنى الفرد العاصي عن الأهل والمال في القيامة: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾⁽¹⁸⁾.

نستنتج أن مادة "فرد" تدل على العدد الواحد الذي ينافي التثنية والجمع؛ مما يؤكد على معنى التفرد ويعكس مفهوم الانفصال؛ فهي تبرز دلالة الاستقلالية الذاتية والوحدة التامة، ولا تشير إلى الوجود الأحادي فقط، وبالتالي فإن المفرد هو المنفصل المستقل بذاته ولا يشترك مع غيره؛ مما يبين تميزه في وجوده وطبيعته.

اصطلاحاً: أما اصطلاحاً فتعرف بكونها: "اللفظة الواحدة من الكلام، المؤلفة من بضعة حروف ذات معنى".⁽¹⁹⁾ إذن اللفظة هي وحدة لغوية تتألف من بعض الحروف التي تترايط مشكلة دلالة ومعنى معين؛ فهي عنصر رئيس في اللغة؛ حيث تعد بمثابة اللبنة الأولى التي توضع وتبنى عليها الجمل والعبارات، وتخدم التعبير عن المفاهيم والأفكار.

وقد عرفها أحمد ياسوف بقوله: "إن المفردة هي المجموعة الصوتية التي تدل على معنى، وهذه المجموعة هي وحدة كلامية تقوم مقام الجزء من الكل في الجملة، وهي الجزء الأولي في بناء النظم، والوحدة المكونة له، فلا يغني أحدهما عن الآخر [...]" وهي ليست كائناً معجمياً، إذ يتبين لقارئ القرآن أنها تمتاز بدلالة جديدة يضيفها الموضوع على حياد المعجم.⁽²⁰⁾

بناء على ما سبق نقول إن المفردة تمثل جزءاً أساسياً في تركيب الجملة اللغوية؛ فهي تعدّ وحدة صوتية تتضمن دلالة معنوية معينة، وتشكل اللبنة الأولية لبناء النظم اللغوي؛ فلا يمكن الاستغناء عن أي مفردة تتشكل منها الجملة لأنها تسهم في تشكيل المعنى الإجمالي للجملة.

ويتضح في القرآن الكريم أن المفردة لا تعد كائناً معجمياً ثابتاً؛ بل إنها تمتاز بدلالة جديدة تكون وليدة موضوعها وسياقها؛ فتظهر المفردات في دلالات إضافية تصدر من السياق الذي وردت فيه؛ مما يوضح التباين بين دلالة المفردة في النصوص المتكاملة ودلالاتها في المعجم.

ب. مذاهب القدمات في بيان المفردة القرآنية:

ذكر أحمد ياسوف عدة مذاهب اهتمت بالمفردة القرآنية؛ إذ حظيت باهتمام بالغ في مجال الأدب؛ حيث نفى أنها مجرد أصوات متناغمة؛ وإنما هي شحنة روحية متغلغلة تأتي من قدرة التأثير في النفوس. ووضح أنها قد تكتسب دلالات جديدة وتتغير من خلال توظيفها في سياقات مختلفة؛ فهي لا تقتصر على معناها المباشر؛ مما يعزز ويقوي تأثيرها الوجداني، وأشار إلى ضرورة استغلال الحروف في النص القرآني بمهارة فائقة للتأثير الوجداني، وقد عني القدامى بهذا الاصطلاح -المفردة القرآنية- وفق منهجين أساسيين هما: (21)

- **المذهب الأول : تقريب المجاز إلى الحقيقة:** وهو النهج الذي سار عليه الكثير من علماء التفسير، ويعد أحد المرتكزات الرئيسية للتفسير بالمأثور، وقد أشار ياسوف إلى ثلة من هؤلاء المفسرين، وعلى رأسهم الإمام الطبري في تفسيره الموسوعي الذي يعتبر من أعمدة هذا الميدان، كما سلط الضوء على الكتب التي ضمت غريب القرآن، ومن أهمها كتاب "الغريب في مفردات القرآن" للراغب الأصفهاني؛ وقد حرص على تقديم دراسة دقيقة وشاملة لمعاني المفردات القرآنية، ثم ابن قتيبة، وقد ركز بدوره على استكشاف الدلالات المتعددة للاصطلاح الواحد في مؤلفه "تأويل مشكل القرآن". كما حذا حذوه الكثير من العلماء الذين سلكوا هذا النهج، وبحثوا في علاقة اللفظ بالمعنى؛ مما زاد في ثراء ميدان التفسير البلاغي واللغوي.
- **المذهب الثاني: الدراسات الجمالية التي ركزت على فنية الكلمة:** ظهرت هذه المفاهيم بصورة متناثرة وقليلة في أعمال أبي عبيدة -صاحب مجاز القرآن- [ت209هـ]، لكنها ازدهرت فيما بعد وشهدت توسعاً في كتب التفسير بالرأي والإعجاز القرآني. ونجد أن معالجة هذه الكتب للمفردة القرآنية قد تختلف باختلاف الوجه المدروس لها، وتتغير نظراً للزاوية التي يتم دراستها منها، ويتأثر هذا التغير بعوامل متعددة؛ أهمها مستوى ثقافة الباحث والعصر الذي ينتمي إليه.

المطلب الثالث: خصائص المفردة القرآنية على مستوى النسيج الصوتي:

- تمتاز المفردة القرآنية بخصائص معينة تختلف عن غيرها وإن كانت من جنس المفردات العربية، وكان من أهم ما تميزت به من خصائص على مستوى نسيجها الصوتي ما يلي: (22)
- **الانسجام التعبيري والصوتي في المفردة القرآنية:** تتميز المفردات المستخدمة بتوازنها الإيقاعي وانسجامها الصوتي، مما يضفي وقعا لطيفاً على السمع وخالياً من أي تنافر، هذه الخاصية الصوتية تعزز التناسق الطبيعي الذي يزيد من جاذبية اللغة ويبين قوتها التعبيرية.
- **أثر الجرس الصوتي في المفردة القرآنية من خلال التلقي المعنوي:** يُستغل الجرس الصوتي للمفردة بما يشتمل عليه من أصوات وحروف تتضمن دلالات إيحائية؛ بحيث يعمل هذا الجرس على إثراء وتعزيز المعنى المقصود. ويستشعر المتلقي مدلول الكلمة قبل أن يصل إلى صريح معناها اللغوي؛ لأن الأصوات في إشارتها إلى مضمون الكلمة تسبق المعاني.

- بساطة التركيب الوزني للمفردة ودلالاته الإيقاعية: تمتاز الكلمات باعتدالها في التركيب غالباً، حيث تأتي من أوزان ثلاثية متوازنة وبسيطة، ويُعد هذا التكوين أكثر التراكيب تلاؤماً ويسراً في النطق. أما استخدام الأوزان الرباعية فإنه قليل، ويكون معدوداً بعشرات الكلمات فقط في القرآن الكريم. ويندر وجود الخماسي ولا يستخدم إلا في كلمات عربية أصيلة.
- سلاسة المعنى وجمالية اللفظ في بناء الدلالة السياقية: تنساب معاني الألفاظ بسلاسة إلى النفس قبل التصريح بها؛ مما يجعلها قريبة من الفهم، وتكون محتارة بعناية خاصة إن استخدمت كلمات غريبة أو ألفاظ شديدة لشري المعنى وتناسب السياق؛ مما يزيد المعنى قوة.
- تنغم الأصوات والحركات في القرآن الكريم نحو جمالية لغوية معجزة: تتناغم الأصوات مع الحركات في الألفاظ والتراكيب القرآنية بشكل فريد، حيث تكون هذه التراكيب متكاملة في الفصاحة بتهيئة الحروف بعضها لبعض وحتى إن وُجد ثقل في بعض الحركات أو تكون غير مألوفة، فإن استعمالها في القرآن الكريم يجعلها تبدو طبيعية وذات تأثير مميز وعجيب في موضعها، ويؤدي هذا التناغم بين الحركات والأصوات دوراً معجزاً في تحقيق الخفة والروعة والجمال الصوتي.

1. المبحث الثاني: الأبعاد الجمالية للمفردة القرآنية:

سنسلط الضوء في هذا المبحث على الأبعاد الجمالية عند أحمد ياسوف، من خلال التطرق لمحورين رئيسين؛ حيث يتجلى المحور الأول في استكشاف الجمال السمعي للمفردة القرآنية، الذي يظهر في الإيقاع والتناغم الحاصل عن التركيب الصوتي للمفردات. أما المحور الثاني فيعني بمعالجة جمالية المدود والحركات في المفردة القرآنية، وارتباطها العضوي بالمعنى؛ حيث تبرز هذه الجماليات انسجاماً واتساقاً فريداً بين المعنى واللفظ؛ مما يضفي ثراءً بلاغياً وعمقاً دلاليّاً على النص القرآني.

المطلب الأول: الجمال الإيقاعي في المفردة القرآنية "مقاربة في الانسجام البلاغي والجمال الصوتي عند أحمد ياسوف":

استعرض أحمد ياسوف في دراسته الأثر الموسيقي لمفردات القرآن، مبيناً الدور الكبير للصوت والإيقاع في تعزيز الجمال البلاغي واللمسة البيانية للنص القرآني، وقد أكد أحمد ياسوف أن المعيار الرئيس لاكتساب الملكة الأدبية هو السمع، كما أوضح أن التجربة السمعية تُعزز الذوق الفني والحس اللغوي بشكل كبير، وقد استأنس برأي إبراهيم أنيس الذي أشار بدوره إلى الإيقاع الموسيقي في المفردات، وأهميته في زيادة تأثير النصوص في النفوس؛ مما يجعل الجانب السمعي متكاملًا مع الجانب الدلالي للنصوص القرآنية؛ وقد تجلّى هذا في قوله: "وفي رأيي أن هذه الظاهرة الموسيقية في اللغة العربية تعزى إلى تلك الأهمية حين كان أدب الأذن لا أدب العين، وحين اعتمد القوم على مسامعهم في الحكم على النص القرآني، فاكتمست تلك الأذان المران و التمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة." (23) كما أوضح ياسوف أن القرآن قد أولى أهمية بالغة لحاسي البصر والسمع، وحض على استعملهما؛ كونهما أهم من يعين الإنسان على تذوق الجمال بشقّي أبعاده؛ فالسمع يتيح للإنسان استشعار التناغم الصوتي والإيقاع في النصوص القرآنية، مما يزيد من التأثير الوجداني. وكذلك البصر الذي يجعل الإنسان مدركاً لتناسق الخلق وجماله، وبذلك فإن

حاستي السمع والبصر تعدان وسيلتين للتأمل العميق والتذوق الجمالي، فضلا عن أنهما من أدوات الإدراك الحسي؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (24)

وكذلك حث على روعة الأداء في قوله تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ أَنْ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (25) ذكر ياسوف في دراسته أن سورة المزمل نزلت مع أوائل نزول الوحي وقد جاء ذكر الترتيل فيها؛ وهذا دليل على إعجاز نسقها البلاغي منذ بدايات نزول القرآن الكريم، كما اختص الترتيل بزمان الليل في هذه السورة زيادة للبعد الجمالي المرتبط بهدوء الليل وسكونه؛ أين يكثر صفاء النفس استعدادًا للتدبر والتأمل. ونظرا لعلم الله بطبيعة النفس البشرية الذي كشفه هذا الربط في الآية؛ حيث جعل السمع نافذة موصلة إلى أعماق النفوس؛ مما يحفزها على الانفعال الإيجابي والتفاعل الروحي مع المتطلبات والتوجيهات الدينية. (26)

وختم مبحثه باستنتاج نموذجين يعبران عن الجمال الموسيقي في القرآن الكريم، حيث قدّم رؤية تحليلية معمقة تعكس الإيقاع المميز والتناغم الصوتي الذي يميز النصوص القرآنية؛ مما يكشف أسرار الإبداع الجمالي والإعجاز البلاغي في بنية الألفاظ والأساليب، وملخص هذين النموذجين: (27)

أولا: ظاهر يتجلى في الفواصل والحروف المتقطعة، والفواصل تشبه قوافي الشعر وتختلف عنها بالتمكن والتنوع. **ثانيا:** جمال خفي مكنون بين الحرف والحركة، ومن خلال الانسجام بين الصفيّر والإطباق والانزلاق، وذلك في نسيج متكامل يأخذ كل جزء منه مكانه الطبيعي، ووفق ما يناسب الموضوع شدة ولينا. من خلال هذه الإشارات التي ركز عليها أحمد ياسوف في دراسته يتضح أنه يولي أهمية بالغة لحاسة السمع؛ حيث يعدها وسيلة رئيسة لاستشعار الأبعاد الفنية للقرآن الكريم وتذوق جماله الأدبي؛ فالسمع في نظره لا يعد وسيلة لإدراك الأصوات فحسب، وإنما يمتد ليصل إلى أعماق النفس البشرية؛ مما يتيح لها التأمل في الأبعاد الجمالية للنصوص القرآنية والتفاعل معها. ويؤكد ياسوف على اعتبار السمع من أهم معايير اكتساب الملكة الأدبية؛ كونه يُمكن الشخص من صقل ذوقه الفني وتنمية حسه اللغوي؛ حيث يتمكن من الارتقاء بمستوى إدراكه الفني إلى الفهم العميق لجماليات اللغة القرآنية.

وأثناء تدرج أحمد ياسوف في الشرح عرج على فكرة الانسجام، مبرزا أنه يُعد فرعا أصيلا في الخصائص الجوهرية للفن، وفهّما معهما يزيد الثقة في الحكم عليه ويعززها؛ لأنه يبنى على أسس موضوعية بعيدة عن التحيز أو الشك، وهذا المفهوم يدعى في التراث العربي باصطلاح "التلاؤم" حسبما أشار إليه ياسوف، وهو يختص ببنية المفردة وعلاقتها بالسياق، وأساس مفهوم الانسجام في الفكر القديم هو: "اجتماع مختلف العناصر وائتلافها في وحدة متناسقة المكونات ومتراصة الأجزاء؛ بحيث تكون هذه العناصر متكاملة لتحقيق كيان متماسك يعكس عمق الفن وجماله، ويعكس هذا الفهم إدراكًا دقيقًا ومعما لدور الانسجام في إبراز جماليات النصوص وإبداعها، سواء في المضمون الفني أو في البنية اللغوية." (28)

وكما يبين أن فكرة الانسجام تعود بجذورها إلى الجاحظ؛ الذي وضح أن هذه الفكرة تتجلى في شكلين أساسيين؛ مما يعكس عمق إدراكه لأبعاد التآلف والتناسق في النصوص ودورها في تعزيز الجمال الفني والبلاغي، ويتجلى هذان الشكلان في:

"1 - انسجام المفردات فيما بينها.

2- انسجام حروف الكلمة الواحدة." (29)

وكذلك تطرق الرماني إلى الانسجام بقوله عن سبب التلاؤم: "والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد. والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة، وطريق الدلالة." (30)

ويبدو جليا من استعراض أقوال كل من الجاحظ والرماني أن أحمد ياسوف كان على دراية عميقة أن مفهوم الانسجام متغلغل في التراث العربي القديم؛ حيث أدرك مدى تجذره في الفكر الأدبي والبلاغي. واستطاع ياسوف أن يستخلص له شرطين أساسيين لتحقيق مفهوم الانسجام انطلاقا من هذه الآراء؛ مما يعكس وعيه بالمنهج والدقيق في مقارنة التراث البلاغي القديم برؤيته التحليلية المعاصرة؛ حيث ركز على أهمية هذا المفهوم من خلال الجمال الفني للنصوص؛ وقد قال عن هذين الشرطين أهما:

"1- تلاؤم المخارج من حيث تلاؤم صفات هذه الحروف الناتجة عن المخارج.

2- سلامة المفردة من الثقل من خلال تشكيلها الداخلي ، إضافة إلى طبيعة حروفها، وكل هذا نحتكم فيه إلى معيار حسي هو السمع." (31)

ومن جهة أخرى نجد الرافعي قد برز كأحد رواد العصر الحديث الذين أولوا اهتمامهم العميق لفكرة الانسجام؛ وقد توسع في تناوله لهذا المفهوم؛ حيث لم يترك فكرته تنصب في الانسجام بين الحروف فقط؛ وإنما جعله أيضا بين صفات الحروف؛ وهذا ما يعكس إدراكه العميق للجمال الصوتي في اللغة، فقد اعتبر أن العذوبة لا تتولد عن ترتيب الحروف فقط؛ بل تنتج من التآلف الدقيق بين صفاتها وخصائصها ، وهو ما يجعل النصوص تتميز بالانسجام الصوتي والجمال الفني الذي يلامس الذائقة الأدبية بعمق، وقد عرف العذوبة بأنها: "[...] لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ، و مناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجر ، و الشدة والرخاوة ، و التفخيم والترقيق ، والتفشي والتكرير." (32)

وقد استلهم أحمد ياسوف مقارنة جماليات المفردة القرآنية من آراء القدامى وبعض المحدثين نظريا وتطبيقا؛ إذ تناول تأثير طول المفردات وقصرها على التعبير والمعاني؛ فقال:

"1- ليست العبرة في كثرة عدد حروف المفردة، بل في نوعية عدد الحروف.

2- تتدخل المدود والحركات في طول المفردات؛ إذ تقسمها إلى مقاطع صغيرة سهلة في النطق والسمع.

3- لبعض المفردات الطويلة في القرآن أهمية هي أعلق بالنظم وملاءمة الموقف.

4- إن سماع المفردات القرآنية لا يشعر بوطء الطول؛ فالتنسيق الزمني مترافق مع نوعية التشكيل الصوتي وكيفيته. "(33)

نتيجة: تتضح جمالية المفردة القرآنية عند أحمد ياسوف من خلال عدد من الخصائص الصوتية المميزة؛ وقد بين أن العبرة لا تكون في كثرة عدد الحروف فحسب؛ بل في تحقيقها لتناغم صوتي مميز وفي نوعيتها. وتلعب الحركات والمدود دورًا حيويًا في تجزئة المفردات وتقسيمها إلى مقاطع صوتية قصيرة؛ مما يعزز سلاستها في النطق والاستماع، وكذلك بالنسبة للمفردات الطويلة؛ فهي ذات أهمية بالغة في القرآن الكريم، حيث تلائم المواقف التي وردت فيها وتتناغم مع النظم القرآني؛ مما يضفي جمالا في الأداء وقوة في التعبير البلاغي، بالإضافة إلى أنه يعكس ارتباطا وثيقا بين التشكيل الصوتي والتنسيق الزمني للمفردات في دقة متناهية؛ الأمر الذي لا يشعر السامع بوطء المفردات الطويلة.

إن هذا الاجتماع الفريد لهذه العناصر الصوتية في القرآن الكريم بذلك التناغم وتلك الدقة يجسد إعجازا صوتيا في أبهى صوره، ويتجلى هذا الإعجاز أيضا في التوافق الفريد بين الألفاظ والمعاني التي تحملها وإيقاعها المتناغم؛ مما يترك أثرا جليا في النفس، ويعكس روعة الانسجام بين الدلالة المعنوية والبناء الصوتي، وهو ما يظهر جزءا من عظمة البيان القرآني.

المطلب الثاني: الإعجاز الصوتي في المفردة القرآنية بين جمال المدود وخفة الحركات:

أولا: البنية الحركية للمفردة القرآنية بين جمال التعبير وخفة الأداء:

إن للحركات الطويلة والقصيرة دورا بارزا في تحقيق جمال الكلمة أو قبحها، فمن جمال اللفظ وكماله الاعتدال في توزيع حركاته وسكونه؛ سواء كانت حركات خفيفة أو ثقيلة، وقد بين هذا ابن الأثير في قوله: "ومن أوصاف الكلمة أن تكون مبنية من حركات خفيفة، ليخف النطق بها، وهذا الوصف يترتب على ما قبله من تأليف الكلمة، لهذا إذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستقل، وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة [...] واعلم أنه قد توالى حركة الضم في بعض الألفاظ، ولم يحدث فيها كراهة ولا ثقل." (34)

والناظر في هذا القول يلاحظ أن من معايير الجودة الصوتية للمفردة خفة النطق بها؛ بحيث ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتركيبها من حركات خفيفة؛ إذ إنّ تتابع هذه الحركات لا يخلف ثقلاً في النطق أو السمع، بعكس الحركات الثقيلة التي قد تؤدي إلى الكراهة الصوتية، كما أن استبعاد بعض التراكيب ذات الضمات المتتابعة من هذا الحكم، يؤدي إلى وجود اعتبارات صوتية جديدة تسهم في قبولها؛ مما يدل على ضرورة التناسق الصوتي في بناء المفردة القرآنية. كما أوضح أحمد ياسوف في دراسته أن دارسي الإعجاز والباحثين فيه لم يولوا اهتماماً كافياً بهذه الجزئيات الفنية، ربما تجنباً للمزالق والتعقيدات التي قد توجبها دراسة الفن الصوتي في القرآن الكريم، رغم أنهم أكدوا على ضرورة التدقيق في بيان أوجه البلاغة القرآنية؛ من حيث الصورة التعبيرية والفنية. وإن كان الجمال الصوتي غير بعيد عن وعيهم وذوقهم، فقد عبروا عنه غالباً بمفاهيم؛ مثل الفصاحة، والخفة، والعدوبة، وغيرها من الصفات التي تعزز أثر الإيقاع والنغم في النص القرآني؛ مما يدل على أن الأبعاد الصوتية كانت حاضرة بشكل دائم ضمن الإطار البلاغي العام وإن لم تُدرس بشكل منفصل. (35)

وقد استهل عرضه برأي الرافي من العلماء المحدثين حول جمال الحركات وبين أن مفهوم الجمال عنده يظل موضوعياً، غير متأثر بتفاوت الأذواق الذاتية للمتلقين؛ ويرجح أن السبب في ذلك يرجع إلى طبيعة القرآن الكريم ذاته؛ لأن الجمال فيه مبني على أسس ثابتة لا تخضع للاختلافات الشخصية، وهو ما عبّر عنه في هذا المقام بقوله: "حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيا كان ، فلا تعذب ولا تساغ وربما كانت أوكس النصيين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيباً ، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان [...]"، من ذلك لفظة (النذر) جمع نذير؛ فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً، فضلاً عن جساءة هذا الحرف ونبوه في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام. فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه؛ ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتْنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾⁽³⁶⁾، فتأمل هذا التركيب [...]. وتأمل مواضع القلقلة في دال (لقد)، وفي الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا)، مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفاً بعد، ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة. ثم ردد نظرك في الراء من (تماروا) فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر) حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم أعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون (أنذرهم) وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في (النذر)."⁽³⁷⁾

ويوضح هذا الشرح كيف أن الحركات الثقيلة في اللغة رغم أنها قد تكون صعبة النطق إلا أنها تتحول إلى عنصر جمالي متناغم في التكوين الصوتي للسياق القرآني؛ مما يمنحها سلاسة منفردة وغير معهودة ويخفف من وطأتها، وذكر مثالا على ذلك في لفظة "النذر"؛ حيث نلاحظ انسجاماً فريداً في بنيتها الصوتية داخل النص القرآني؛ بفضل توظيف القرآن الكريم لعناصر؛ كالتتابع الصوتي المدروس، والقلقلة، والقافية. وهذا دليل على أن القوانين الدقيقة التي تحكم الجمال الصوتي في القرآن والتوازن بين الخفة والثقل محكمة وليست اعتباطية؛ مما يعكس جانباً من الإعجاز الصوتي في القرآن.

ولعل مقارنة الرافي في نظر ياسوف لم تستوف جميع جوانب الإيقاع القرآني ولم تشمل البناء الصوتي المتكامل للخطاب القرآني، وفي هذا المقام يقول عنه: "ويؤخذ عليه أن نظرتة جزئية، فقد وجد أن كثرة الفتحات تنسجم وتوائم توالي الضمات في الفاصلة؛ مما يجعلها خفيفة على اللسان والأذن، وهذا ينم على تدبر عميق للنسق القرآني، لكن هذه المفردة وردت في سورة القمر نفسها بينيتها الثقيلة-كما يرى-عشر مرات أيضاً، ولم يسبقها هذا التوالي من الفتحات، كما في "بطشتنا" مما يحقق الانسجام، فإذا عرفنا أنها ظلت فاصلة فيما يدعى باللازمة الموسيقية، ولم تسبقها تشكيلة صوتية واحدة من الحركات التي ذكرها، نكون قد اعترفنا بجسأتها في عشرة مواضع."⁽³⁸⁾

ويتجلى من هذا القول أن نظرة الرافي في هذا المقام تعد جزئية؛ نظراً لأن كثرة الحركات في تخفيف الثقل الصوتي للمفردة ليس قانوناً ثابتاً في القرآن الكريم؛ بل يرتبط بعوامل أخرى متعلقة بالسياق؛ فرغم دقة تحليله في الانسجام الذي قد يعكسه توالي الضمات مع كثرة الفتحات؛ إلا أن بقاء المفردة فاصلة ثابتة رغم ورودها عدة

مرات في سورة واحدة دون هذا التتابع من الفتحات، يدل على استمرار ثقلها الصوتي وأنه لم يُنحَ تمامًا. وهذا يستدعي إعادة النظر في تأثير الحركات على تحقيق الانسجام الصوتي والخفة في البناء القرآني.

وفي ختام حديثه أشار إلى انفراد الرافعي في تناول هذا الموضوع مبينًا تميزه في التحليل والطرح رغم الملاحظات التي قد طرحها؛ وقد عبّر عن ذلك بقوله: "ليت الدارسين قدامى ومحدثين استفادوا- كما استفاد الرافعي - من قواعد التجويد لكشف جماليات السمع بدلا من إشعارنا بالحدس، وقلما استفادوا من التجويد أو فقه اللغة، ولو فعلوا لكانوا أكثر معيارية من الاحتكام إلى الذوق وحده." (39)

نتيجة: إن اختلافات الحركات في المفردة القرآنية تشكل عنصراً جوهرياً يؤثر على إبراز قيمتها الجمالية والتعبيرية. فهي تساهم في تعزيز انسجام اللفظ مع السياق الذي يرد فيه، ولا تقتصر على تحسين جرسه فحسب؛ مما يعكس إيقاعاً متفرداً على النص القرآني ومعاني دقيقة تكون منسجمة مع مقاصده البلاغية. وهذا التفاعل والتناغم بين المعنى والحركة في القرآن الكريم يعكس جانباً من الإعجاز اللغوي؛ حيث تتكامل الدلالات والأصوات لخلق تأثير بياني فريد.

ثانياً: الحركات الطويلة والمدود في النص القرآني بين الإيحاء الدلالي والجمال الصوتي:

جاء توظيف حروف المد والحركات الطويلة في المفردة القرآنية وفق نسق جمالي دقيق ومتفرد في سياقات النص القرآني؛ حيث تظهر مقاطع صوتية مغرقة في الطول والتشديد والمد؛ مما يكسبها وقعاً مميزاً في السمع. ورغم أن هذه التراكيب الصوتية نادرة في اللغة العربية، لدرجة أنها تعدّ على الأصابع، غير أن القرآن الكريم يوظف أفواها تأثيراً وأفخمها لفظاً. إن هذا الاستخدام المدروس يعكس دلالات ومعاني صوتية تعبّر عن القوة والشدة، ولا يقتصر على الجانب الجمالي فقط؛ مما يستدعي التوقف عندها والتأمل في معانيها، لإدراك أحقيتها وأهميتها وما تحمله من عمق الأبعاد الدلالية.

وقد تناول ياسوف في دراسته ظاهرة الإفراد والجمع من خلال سرد آراء كل من الرافعي والعلوي، مشيراً إلى أنهما كانا من القلائل الذين تناولوا هذه الظاهرة دون غيرها، مما يجعل الدراسات الموسيقية المتعلقة ببنية المفردات نادرة، كما أشار أن سيد قطب إلى جانب الرافعي كانا أكثر الباحثين اهتماماً بالحركات والمدود، رغم ميله إلى الذاتية المبهمة والغموض، وأورد شواهد قرآنية مرفقة بالشرح مبرزاً استنتاجاته من خلالها، ومما يعكس إدراكه الشديد للدقائق الفنية في بنية المفردات كالحركات والمدود وغيرها، ومن الألفاظ التي كثر توظيفها في مؤلفاته "الجرس والإيقاع"، كما رأى أن سيد قطب لم يتنبه إلى شدة جمال المد بقدر اهتمامهم بالدوي الذي يُعبر عنه بالشدة، وذكر في ذلك مثال حرف القاف في سورة الحاقة؛ وهو ما يصطلح عليه في علم التجويد بالمد اللازم المثلث؛ بحيث يمد بست حركات. (40)

وكذلك تحدث ياسوف عن آراء المحدثين كمحمد المبارك وابن جني حول جمالية المد كما تحدث عن أستاذه نور الدين عتر وعرض له بعض لفتاته الجديدة في هذا الميدان؛ فهو يرى أن الموسيقى تساعد على التصوير وجلاء الفكرة في الآيات؛ إذ يربط بين الفكرة والجمال الموسيقي (41).

وفي مقاربة أقوال القدامى والمحدثين حول جمالية المدود يقول أحمد ياسوف: "ولابد من أن نؤكد أخيراً أن الدارسين القدامى قد لفتوا النظر إلى دقائق موسيقية في نسق القرآن ، وإن اكتنف نظرتهم شيء من الغموض و الإجمال، ثم جاء الرافعي واعتمد شواهدهم القرآنية ، واحتكم إلى فن الموسيقى اللغوية ، وإن ظل كلامه في حاجة إلى توضيح، وهو يهتم بجمال الشكل ، ولم يربطه بالمضمون، فكان همه تبين السلاسة في وقع الكلمة على الأذن [...] الإجمال لا يقتصر على القدامى ، بل ينطبق على كثير من نظرات المعاصرين الذين اتسمت نظرتهم بالمبالغة إلى جانب الإجمال ، لذلك نرجح الأسلوب الذي جاء عند محمد المبارك والدكتور عتر." (42)

خلاصة: إذن يمكننا القول أن جمال المفردة القرآنية يمتد إلى بنيتها الصوتية التي تمثل عنصراً رئيساً في تأثيرها الدلالي والجمالي، ولا يقتصر على معناها الظاهر فحسب؛ فالأصوات المنسجمة والمؤتلفة داخل الكلمة تجعل المعنى أقرب إلى ذهن المتلقي؛ حيث أنها تخلق إيحاءً خاصاً أو إيقاعاً معيناً يعزز من عمق الفكرة المطروحة. وكذلك فإن اختلاف الحركات سواء الطويلة أو القصيرة (المدود)، أو غياب بعض الأصوات يكسبها بعداً جديداً يؤثر في المعنى بما يتناسب مع السياق. كما أن البنية الصوتية في القرآن ليست مجرد عامل جمالي؛ بل هي جانب من النسيج الدلالي الذي يوصل المعنى بأبلغ صورة ممكنة وأدقها.

الخاتمة:

الحمد لله أولاً وآخراً، وبعد الجولة مع موضوع الدراسة -مظاهر الإعجاز الصوتي من خلال الأبعاد الجمالية للمفردة القرآنية عند أحمد ياسوف - خلصنا إلى مجموعة من النتائج أهمها:

1. أكد أحمد ياسوف أن الإعجاز القرآني زاوج بين تناسق المعنى والصوت، وفق قاعدة الاختيار الأمثل للمفردات، والانسجام التام بين الألفاظ ودلالاتها، مما يجعل كل مفردة توضع موضعها الأليق بها.
2. لا يوجد في القرآن حرف نافر عن سياقه أو كلمة جافية عن موضعها؛ وإنما جاءت كل مفردة منسجمة تماماً مع السياق النصي الذي وردت فيه؛ بحيث لا يكون استبدالها بأخرى إلا وكان الإخلال بمضمون النص أو جماله.
3. يسهم اختلاف الحركات والمدود، والتنوع في صفات الحروف في تحقيق الجمال السمعي للفظ القرآني، ما يجعله ذا إيقاع مؤثر يثري دلالته، ويعزز من وقعه في النفس.
4. أشار أحمد ياسوف إلى أن التشكيل الصوتي للمفردة في السياق القرآني ليس عشوائياً ولا اعتباطياً؛ بل يتبعه اختلاف في المعنى بالضرورة؛ حيث يسهم ارتفاع قوة الصوت في تعميق المعنى، وإظهار أبعاده الدلالية بجلاء أكبر؛ مما يعكس دقة وإحكام البناء الصوتي في القرآن الكريم.
5. يعتبر الصوت من الأبعاد الرئيسة في بنية المفردة القرآنية وليس مجرد عنصر جمالي فحسب؛ وإنما هو ركن ركين وجزء لا يتجزأ من الإعجاز اللغوي؛ إذ يعزز تحقيق التناسق التام بين المعاني والألفاظ.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة أنجلو المصرية-القاهرة، ط2، 1963م.

- ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي-الرياض، ط2، 1983م.
- ابن جني، سر صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، [د.ت].
- ابن سينا، الشفاء (الرياضيات: جوامع علم الموسيقى)، المقالة1، تحقيق: زكريا يوسف، المطبعة الأميرية -القاهرة، 1956م.
- ابن فارس أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط1، 1399هـ - 1979م.
- ابن منظور جمال الدين الأنصاري، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط3، 1414هـ.
- أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، دار المكتبي، دمشق، ط1، 1994م.
- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر-القاهرة، [د.ط]، 1948م.
- حامد عبد القادر، دراسات في علم النفس الأدبي، المطبعة النموذجية-القاهرة، ط1، 1949م.
- الخليل ابن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تحقيق: مهدي المخزومي والسامرائي، دار مكتبة الهلال، [د.ط]، [د.ت].
- الروماني، ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق: محمد خلف الله وزغلول سلام، دار المعارف -القاهرة، ط4، [د.ت].
- الشريف الجرجاني علي بن محمد بن علي الزين، التعريفات، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية (بيروت - لبنان)، ط1، 1403هـ - 1983م.
- الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، [د.ط]، [د.ت].
- محمود البستاني، القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، مجمع البحوث الإسلامية- إيران، ط1، 1414هـ.
- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي - بيروت، ط9، 1393هـ/1973م.
- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن، دار الكتاب العربي-بيروت، [د.ط]، 1990م.
- فريق موقع تفسير، أحمد ياسوف، 2008م، مركز تفسير للدراسات القرآنية. <https://tafsir.net/ahmd-yaswf>، (مستخرج من النت).
- محمد سعيد باصالح، أسرار التعبير القرآني (المفردة القرآنية)، 2012/10/17م، مدونة الشيخ محمد سعيد باصالح، <http://mhmd-basalh.blogspot.com>، (مستخرج من النت).

الهوامش:

- ¹ ينظر: فريق موقع تفسير، أحمد ياسوف، 2008م، مركز تفسير للدراسات القرآنية، <https://tafsir.net/ahmd-yaswf> (مستخرج من النت).
- ² ينظر: المرجع نفسه.
- ³ (ابن فارس) أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط1، 1399هـ - 1979م، ج 4، باب العين والجيم وما يثلاثهما، ص 232، مادة (ع ج ز).
- ⁴ (ابن منظور) جمال الدين الأنصاري، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط3، 1414هـ، ج 5، ص 369، حرف الزاي، فصل العين المهملة، مادة (ع ج ز).
- ⁵ (الشريف الجرجاني) علي بن محمد بن علي الزين، التعريفات، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية (بيروت - لبنان)، ط1، 1403هـ - 1983م، ج1، ص31.
- ⁶ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي - بيروت، ط9، 1393هـ / 1973م، ص139.
- ⁷ الخليل ابن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تحقيق: مهدي المخزومي والسامرائي، دار مكتبة الهلال، [د.ط]، [د.ت]، ج7، ص146 (مادة ص و ت).
- ⁸ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ص203 (مادة ص و ت).
- ⁹ ابن جني، سر صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، [د.ت]، ج1، ص60.
- ¹⁰ ابن سينا، الشفاء (الرياضيات: جوامع علم الموسيقى)، المقالة1، تحقيق: زكريا يوسف، المطبعة الأميرية -القاهرة، 1956م، ص04.
- ¹¹ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص152.

- 12 سورة الأنعام، الآية: 94.
- 13 الخليل ابن أحمد الفراهيدي، معجم العين، ج8، ص24.
- 14 ينظر: الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، [د.ط.]، [د.ت.]، ج4، ص179.
- 15 سورة الانبياء: الآية: 89.
- 16 سورة: مريم، الآية: 80.
- 17 سورة: مريم، الآية: 95.
- 18 سورة: الانعام، الآية: 94.
- 19 محمود البستاني، القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، مجمع البحوث الإسلامية- إيران، ط1، 1414هـ، ص227.
- 20 أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، دار المكتبي، دمشق، ط1، 1994م، ص20.
- 21 ينظر: أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص36-38.
- 22 ينظر: محمد سعيد باصالح، أسرار التعبير القرآني (المفردة القرآنية)، 2012/10/17م، مدونة الشيخ محمد سعيد باصالح، <http://mhmd-basalh.blogspot.com> (مستخرج من النت).
- 23 إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة أنجلو المصرية-القاهرة، ط2، 1963م، ص190.
- 24 سورة الإسراء، الآية: 36.
- 25 سورة المزمل، الآيتان: 4-5.
- 26 ينظر: أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص (80-82).
- 27 المرجع نفسه، ص82.
- 28 حامد عبد القادر، دراسات في علم النفس الأدبي، المطبعة النموذجية-القاهرة، ط1، 1949م، ص103.
- 29 الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر-القاهرة، [د.ط.]، 1948م، ج1، ص (37-38).
- 30 الرومي، ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق: محمد خلف الله وزغلول سلام، دار المعارف -القاهرة، ط4، [د.ت.]، ص88.
- 31 أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص173.
- 32 مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن، دار الكتاب العربي-بيروت، [د.ط.]، 1990م، ص210.
- 33 أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص189.
- 34 ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي-الرياض، ط2، 1983م، ج1، ص191.
- 35 ينظر: أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص208.
- 36 سورة القمر، آية: 36.
- 37 مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص(227-228).
- 38 ينظر: أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص210، ولمن أراد أن يفصل أكثر ينظر: ص (212-240).
- 39 : أحمد ياسوف: جماليات المفردة القرآنية، ص212.
- 40 ينظر: المرجع نفسه، ص (213-219).
- 41 ينظر: أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص (219-221).
- 42 المرجع نفسه، ص221.